أفكارٌ في العلمانيّة والدين: عودةٌ لا بدّ منها

حسين صفيّ الدين*

في ظلّ المفاهيم الملتبسة الشائعة، تحمل ثنائيّةُ العلمنة والدين، وبشكلٍ مباشر، موضوعَ التعارض بينهما. فهل العلمانيّة ضدّ الدين، أمْ أنّ الدين هو الذي يعاديها؟ وهل هناك إمكانيّةٌ إضافيّةٌ للتوفيق؟

التباسُ المعنى موجود، وهو ينطلق من التعريف لكون التعريف ـ في الوقت الذي يتحدّد نتيجةً لتكثيف المضمون في جملٍ محدّدة ـ مدخلاً مفهوميًا لمضمونه؛ فإذا جرى تعميمُه وَضع حدوداً قاسيةً أمام فهم موضوعه المحدّد. وهذا ما حَكَمَ التعاطي مع العلمنة، إذ جاء الالتباسُ من صياغة محدّداتٍ غير دقيقة حول مضمونها، فربطتْ بعضُ هذه التعريفات العلمانيّةَ بالإلحاد، وعُمّم هذا المفهومُ حتى يومنا هذا.

* ـ كاتب، ورئيس جمعيّة «جدل» من أجل العلمنة، وطبيب أسنان.

إنّ مفهوم العلمانيّة يتخطّى اللفظَ الكلاميَّ والجدل المتكرّر حول أصل الكملة وجذرها اللغويّ إلى آفاقٍ رحبةٍ من النقاش: حول مفاهيم التراث والحداثة، وحول الفكر العقليّ والفكر الميتافيزيقيّ الغيبيّ، وحول العلوم وتطوّرها وتجلّياتها في أدواتٍ وعلاقات إنتاج وتشكيلاتٍ اجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ تنتجها، وحول المقدّس الإلهيّ من ناحية والبشريّ الوضعيّ من ناحية ثانية، وحول مفهوم الدولة والنظام السياسيّ الذي تختاره الجماعاتُ المختلفةُ لإدارة شؤونها، وحول وعي الفرد فيها إلى الواجبات والحقوق، وحول الرؤى العامّة للأخلاق والقيم، وحول التربية والتعليم والقوانين التي تَحْكم العلاقاتِ بين الأفراد.

لا نستطيع القولَ إنّ التعارض لم يحصل، لأنه حصل فعلاً في مراحل تاريخيّةٍ محدّدة ضمن حركة تطوّر المجتمعات. ولكنّ التعارض والصراع لم يحصلا مع الدين كجوهر إيمان وكنظام قيم (فالمنادون بالعلمنة هم بغالبيّتهم مؤمنون)، وإنما مع **المؤسّسة الدينيّة** كسلطةٍ سياسيّةٍ منصّبةٍ بقوّة سلطة الأمراء الإقطاعيّة على الأفراد والمجتمعات. ذلك أنّ نظام القيم الدينيّة قائمٌ على الإيمان والمحبّة والتسامح، وعلى المناحي الأخلاقيّة لحياة الإنسان، ملتقيًا إلى حدٍّ كبيرٍ مع الكثير ممّا تطرحه القوانينُ الوضعيّة والمذاهبُ الإنسانيّة (إذ إنّ هناك دياناتٍ بلا إله، كالبوذيّة مثلاً). ولكنّ هذه القيم، عبر تولّي المؤسّسات الدينيّة محاولةَ تفسيرها وتأويلها وإعادة صياغتها، في ظلّ نصٍّ دينيٍّ يحمل في ذاته الكثيرَ من التناقض، تؤدّي إلى تكوُّن مناهجَ وآراءٍ مختلفةٍ حولها، قائمةٍ على مصالح كلّ فئةٍ اجتماعيّة.

❖ ❖ ❖

إذا كانت العقلانيّة شكّلتْ مقدّماتٍ فكريّةً وثقافيّةً للثورة البرجوازيّة، وشكّلتْ لاحقًا إيديولوجيا للدولة (الجمهوريّة) البرجوازيّة، فإنّ الفكر الدينيّ (لا الدين) شكّل إيديولوجيا للحكم الإقطاعيّ في علاقة تشابك مصالح كبرى. فكان هذا الفكرُ في خدمتها، متصادمًا مع أيّ حركةٍ عقلانيّة، وكبحَ نهضةَ العلوم باستنتاجاتها الثوريّة (مثالا كوبرنيكوس وغاليليو).

فجأةً أصبحت المسيحيّة، المضطهَدةُ لثلاثة قرونٍ ونيّف في ظل سلطة روما، وبفضل هذه السلطة، دينَ الإمبراطوريّة الرسميّ. وأصبح الإمبراطور قسطنطين، بشكل أو بآخر، رأسَ الكنيسة، وكان له دورٌ حاسمٌ في المجامع المسكونيّة وفي ترجيح رأيٍ على آخر، حتى في مسائل العقيدة وفي إعادة صياغتها وإقرارها، وطُوِّب قدّيسًا. بكلام آخر، شكّلت المسيحيّة إيديولوجيا للإمبراطوريّة، وساهمتْ في تثبيت سلطتها في جدليّة الإلهيّ والزمنيّ، وفي إعطائها صفةً إلهيّةً مطلقة برّرت الفتوحاتِ والحروبَ، وجعلت الكنيسةَ شريكةً لهذه السلطة الإقطاعيّة عبر الهبات والنذور والمُلْكيّاتِ الإقطاعيّة الكبيرة، ولعبتْ دورًا في قمع الفلاحين وتشريع أنظمة القنانة لقرون (بقي نظامُ القنانة معمولاً به في روسيا مثلاً حتى القرن التاسع عشر). وفي أوائل القرن السادس شهدتْ أوروبا عصرَ الظلمات، إذ انبرت الكنيسةُ، عبر سلطتها المطلقة، في مواجهة كلّ الأفكار الجديدة ومنعها، متحالفةً في ذلك مع السلطة الإقطاعيّة، ومستمدّةً القوةَ منها.

❖ ❖ ❖

أما الحركة الدينيّة الإصلاحيّة فشكّلتْ مشروعًا فكريًا تأسيسيًا في خدمة طبقة ناشئة، هي الرأسماليّة. وكانت الحروب الدينيّة، في جوهرها، حروبًا في خدمة التحوّل الاقتصاديّ الذي كان في طور تشكّله. يقول ماركس في توصيفه للوثر، في كتابه **نقد فلسفة الحقّ عند هيغل**: «إنّ لوثر قهر، بلا ريب، العبوديّةَ عن ورع، بإحلاله محلَّها عبوديّةً عن إقناع. لقد هَدم الإيمانَ بالسلطة، بإحلاله سلطةَ الإيمان. حوّل الإكليريكيين إلى علمانيين، بتحويله العلمانيين إلى إكليريكيين. أعتق الإنسانَ من التديّن الظاهريّ، بجعله التديّنَ الإنسانَ الباطنيّ. حرّر الجسدَ من أغلاله، بإثقاله القلبَ بهذه الأغلال.»

❖ ❖ ❖

ثم إنّ البرجوازيّة نفسَها، التي تبنّت العقلانيّة إيديولوجيّةً، وشَحذتْ كلَّ أسلحتها المتاحة لضرب الكنيسة (المتحالفةِ مع الإقطاع) ولمحاصرتها في مرحلةٍ متقدّمةٍ من سلطتها ومن تبلور الصراع الطبقيّ ضدّ الطبقة الناشئة (الطبقة العاملة)، لم تألُ جهدًا، هي الأخرى، في «الارتداد» ومحاولةِ استخدام الدين لكبح جماح الشعب بوسائلَ «أخلاقيّةٍ» كان للدين تأثيرٌ كبيرٌ فيها. يقول أنغلز: «شعّ انتصارُ المحترميّة البريطانيّة على حريّة تفكير البرجوازيّ القاريّ وفتوره الدينيّ. وأصبح عمّالُ فرنسا وألمانيا متمرّدين بعد أن أصيبوا بعدوى الاشتراكيّة. ولم يكن للبرجوازيين المتزندقين إلاّ اعتناقُ مظاهر الورع، فراحوا يتكلّمون باحترامٍ عن الكنيسة، عن عقائدها وطقوسها. وانقطعت البرجوازيّةُ الفرنسيّةُ عن أكل اللحم والدهن يوم الجمعة. وأصغى البرجوازيّون الألمان بورع إلى المواعظ البروتستانتيّة التي لا تنتهي، وكأنهم كانوا قد ضلّوا بماديّتهم!» هكذا صار ينبغي الاحتفاظُ بالدين لأجل الشعب؛ فالدينُ وحده هو الذي بات في وسعه إنقاذُ المجتمع من «الانهيار التامّ.»

ولعلّ أفضلَ ما يعبّر عن استخدام الدين قولُ راهبٍ أفريقيّ: «جاء الأوروبيّون يحملون الكتابَ المقدّس، لا يملكون سواه، ونحن كنّا نملك الأرض. فقالوا لنا أغمضوا أعينَكم لنصلّي للإله. فأغمضنا أعينَنا وصلّينا. وعندما فتحناها، وجدنا أننا امتلكنا الكتابَ المقدّس، وأنّ الأوروبيين امتلكوا الأرض!» هذا القول، على بساطته، يلخّص مرحلةً استعماريّةً امتدّت قرونًا، كان الدينُ ونشرُه والتبشيرُ به مبرِّرًا لإغواء سكّان المستعمرات، ومقدِّمةً لمعاناة هذه الشعوب قرونًا وقرونًا.

❖ ❖ ❖

وفي الإسلام أيضًا، انطلق النصُّ الإلهيُّ، العربيُّ اللغةِ والبيئةِ، لطرح عالميّته عبر نشر الدعوة. فكانت العقيدة الإسلاميّة هي

الأساسَ الفكريّ والسياسيّ، وعبر الفتوحات تأسّستْ أعظمُ الإمبراطوريّات. وباختلاف العصور التي تعاقبتْ على إدارة السلطة، بقي الإسلامُ العصبَ الأساسَ لحياة هذه الإمبراطوريّة، على اختلاف القوميّات والمذاهب والأهداف. وقد استُخدم الدينُ لتبرير أيّ سلطة عبر التاريخ الإسلاميّ. وكان للصراع السياسيّ ضمن المجموعة الواحدة ذاتها مبرِّرٌ فقهيٌّ وعقيديّ ـ وهذا ما برز في شعارات الانقلابات السياسيّة التي حصلتْ في العهدين الأمويّ والعبّاسيّ، ولكنها كانت أكثرَ بروزًا في ظلّ حكم الأقليّات القوميّة: فالمماليك اتّخذوا فكرَ ابن تيميّة التكفيريّ مبرِّرًا لكلّ نشاطهم السياسيّ، والعثمانيون اتّخذوا من مذاهب أهل السنّة أساسًا لاستعادة الخلافة.

❖ ❖ ❖

عبر هذا التاريخ لم يكن هناك سلامٌ في تشابك السياسيّ بالدينيّ. وكلّما جاءت سلطة، حاولتْ فرضَ مفهومها «للحقّ والضمير،» وارتكبتِ المذابحَ تحت هذا الشعار. ولكنْ ما تجب الإشارةُ إليه هو أنّ هذه الصراعات الفكريّة والفقهيّة والشرعيّة لم تؤدِّ إلى إصلاح دينيّ حقيقيّ في الفكر الإسلاميّ، كما حصل في أوروبا، بل إلى إعادة إنتاج صراعاتٍ ونزاعات. فتداخل الوحيُ الإلهيّ بالإنسانيّ الوضعيّ حتى اليوم، من دون أن نجد حدودًا لأيٍّ منهما.

ومنذ التشكيلات الاجتماعيّة الأولى طُرِحَ السؤالُ الأساسُ حول ماهيّة القوانين والنظم التي تدير شؤونها، وحول ماهيّة السلطة وطبيعتها. وترافق ذلك مع أسئلةٍ أخرى عمّن خلق هذا العالم، وعن غايةِ الوجود، وما بعد الموت. وتعدّت هذه الأسئلة الهواجسَ إلى الضرورات: ونَرصد في هذا المجال تراكمَ عمليّاتٍ معرفيّةٍ إنسانيّة، عبر قرون وقرون، من خلال أشكالٍ مختلفةٍ من الحكم، وديانات ومذاهبَ فلسفيّةٍ متعدّدة، من أجل الإجابة عن مجمل هذه الأسئلة الوجوديّة، في محاولاتٍ دؤوبةٍ لم تنتهِ فصولاً حتى يومنا هذا: من حضارات ما بين النهرين وشرائع حمورابي، إلى التراث الدينيّ لليهوديّة والمسيحيّة والإسلام. إنها أسئلة وجوديّة على مستويين: مستوى حياة البشر اليوميّة، ومستوى الفكر الإنسانيّ بما هو بحثٌ عن إجاباتٍ على أسئلة هذا الكون والإنسان.

❖ ❖ ❖

قَدّم الدينُ، على المستوى الثاني، نظريّةَ خلقٍ كاملةً، وأعطى إجاباته الشاملةَ المقدّسةَ لكلّ هذه المجالات مرّةً واحدة. وكانت إجاباتٍ سهلةً على أسئلةٍ صعبةٍ ومعقّدةٍ لطمأنة المؤمنين، في وقتٍ ما زالت فيه الفلسفةُ في حركتها وسيرورتها تبحث قلقةً عن الإجابات. ولمّا كان الدينُ يتكلم كلامًا محسوسًا، فإنه يشكّل صيغةَ تفكير مباشر يَسْهل فهمُها لدى العدد الأكبر من الناس. وهذه الخاصيّة يمكنها أن تمنحه فاعليّةً عمليّةً كبيرة. فرسالة الإيمان قابلة لتأويلات مختلفة، بل متناقضة، تبعًا للعصور والطوائف التي تتوجّه إليها. إنّ شكل الرسالة الدينيّة نفسَه، أو تعبيرَها غير المباشر (الرمزيّ)، يبيّن كيف أمكنها أن تندمج في الإيديولوجيا السائدة حينًا، وأن تثورَ عليها حينًا آخر.

أما على المستوى الأول، فإنّ الدولة أخذتْ أشكالاً مختلفة: المدينة ـ الدولة، والممالك، والإمبراطوريّات، إلى أن استوت على شكل الدولة ـ الجمهوريّة، في حركةٍ تهدف، عبر مسارها التاريخيّ، إلى تحقيق حلم الإنسان بدولةٍ عادلة (مدينة أفلاطون الفاضلة، جمهوريّة الفارابي،...).

وكما شكّلت المسيحيّةُ في القرن الرابع إيديولوجيا للإمبراطوريّة الرومانيّة (مع قسطنطين)، وشكّل الإسلامُ إيديولوجيا للدولة العربيّة ـ الإسلاميّة (ولاحقًا للإمبراطوريّة الإسلاميّة)، فإنّ الدولة القوميّة تبنّت مفهومًا للخير يعبِّر عنه الدينُ، واتّخذتْ دور سلطةٍ مدنيّةٍ أصبحتْ بدورها في خدمة المؤسّسات الدينيّة. وما زالت الدولُ، بغالبيّتها، تلعب هذا الدورَ اليوم. فقد ظلّت السياسة خاضعةً بشكلٍ شبهِ تامّ لدينٍ سائد، وبقي الدينُ يَفرض نفسَه على أنظمةٍ بشريّة، «إذ في عالم العقل المؤمن بالخلق، وبوحدانيّة الخالق خصوصًا، تتغلّب شريعةُ الخالق منطقيًا على قانون المخلوق، ويرجَّح الحقُّ الإلهيّ على حقّ البشر» كما يقول Gay Hacher.

على أنّ هذا الأمرَ لا يقتصر على الدين، وإنما يتعدّاه إلى إيديولوجيّاتٍ شموليّة، ذاتِ رؤًى شاملةٍ إلى الكون، من منطلقٍ عقليّ لا ميتافيزيقيّ غيبيّ. فهي تتّجه إلى هيمنة مفهومٍ خاصٍّ للخير. ولمّا كانت السياسة تملك احتكارَ «العنف المشروع،» فإنها تستخدمه لمصلحة تصوّرٍ خاصٍّ ومحدّدٍ للحياة.

❖ ❖ ❖

وفي المقابل، فإنّ الدولة العلمانيّة أخرجت البحثَ عن الحكمة من دائرة اختصاصها لتُلحقه بدائرة الوعي الفرديّ، لا امتيازَ فيه لأيّ دينٍ على دين آخر، أو لأيّة طائفةٍ على طائفة أخرى، ولا لأيّ تصوّر «للحياة الصالحة.» كما أنها تكفل حريّة التعبير. وهي لم تعد تسعى إلى فرض وجهة نظر فئةٍ من المجتمع على بقيّة الناس بالإكراه، بل تقيّد قدراتها الاستبداديّة بالقوانين التي تحكم بموجبها، ساعيةً إلى أن تمثّل الشعبَ بأكمله بغضّ النظر عن العِرق والدين واللون والقناعات الفكريّة.

ولكون العلمانيّة تجلّيًا للحياة بحسب العقل، فإنها في حركةٍ دائمةٍ مترافقةٍ مع حركة التغيير في المجتمعات، ومع مستوى الوعي الإنسانيّ. فليس هناك مثالٌ علمانيٌّ ثابتٌ لكلّ البلدان ولكلّ المجتمعات، بل على كلٍّ منها أن يصوغ تطبيقاتِ ذلك المثال بشكلٍ من الأشكال، منطلقًا من جوهره الإنسانيّ. وجوهرُ العلمانيّة هذا يتجسّد، حكمًا، بنصوص دستوريّةٍ وقوانينَ يدار المجتمعُ على أساسها، وذلك ضمن شروطٍ تاريخيّةٍ محدّدة.

❖ ❖ ❖

لم تكن القيمُ العلمانيّة، بما هي حياةٌ حسب العقل، بعيدةً عن الفكر العربيّ الإسلاميّ. فلنتذكّرْ مدينة الفارابي الفاضلة

وشروحَه للمنطق الأرسطيّ؛ ولنتذكّرْ ترجماتِ ابن رشد، التي شكّلتْ ركيزةً لمفاهيمَ جديدةٍ في أوروبا، وألهمتْ دانتي في كتابه حول المَلَكِيَّة في القرن الرابع عشر. ولنتذكّرْ حيّ بن يقظان لابن طُفَيْل، التي كانت أساسًا لرواية روبنسون كروزو (عن العقل وإمكانيّاته المعرفيّة).

الخطر يكمن في أن تتحوّل البنى الفكريّة الحرّة إلى أداةٍ تُسْتَخْدَم خارج سياق وظيفتها الأساسيّة. وهذا ما أدّى إلى اختلالات في مسار تطبيق الأنظمة العلمانيّة.

ولكنْ، في هذا السياق، يُطْرَحُ السؤالُ الآتي: لماذا أَنتجتْ هذه الأفكارُ في أوروبا مفهومًا للدولة تكرَّسَ في الجمهوريّة العلمانيّة، ولم يحصلْ ذلك في مراحلَ مبكّرةٍ في عالمنا العربيّ الإسلاميّ؟

الإجابة في جزءٍ منها تكمن في أنّ الثورة الصناعيّة، والطبقاتِ الناشئة وما شكّلته من مفاهيمَ حداثيّة، تصادمتْ مع التراث الجامد والصيغ السياسيّة المقيِّدة للبنية الإقطاعيّة، وكلُّ ذلك شكّل الإطارَ المتينَ لهذه الأفكار. لكنّ هذه الشروط لم تتوفّرْ للتجربة الإسلاميّة، فذهبتْ أفكارًا مزهرةً في أمكانٍ أخرى.

أما بعضُ الحالات، ككتاب سلمان رشدي، وموضوع منع الحجاب في المدارس الرسميّة في فرنسا، فيُدخلنا في نقاشَ حول الإيديولوجيا والسياسة: الإيديولوجيا كعلم أفكار، وما آلت إليه الآن في دلالتها على الجمود الفكريّ، وهو عكسُ جوهرها؛ والسياسة بما هي وسيلةٌ لاستخدام الإيديولوجيا لخدمة مصالح الطبقات أو الدول. الخطر يكمن في أن تتحوّل البنى الفكريّة الحرّة إلى أداةٍ تُسْتَخْدَم خارج سياق وظيفتها الأساسيّة. وهذا ما أدّى إلى اختلالات في مسار تطبيق الأنظمة العلمانيّة، إذ طغت أحيانًا المصالحُ السياسيّة والاقتصاديّة على جوهر الفكرة العلمانيّة. ولكنّ هذه الاختلالات كانت دائمًا في مواجهة حالةٍ ناشئة (مثلاً توسُّع وجود المسلمين في أوروبا). وسيبقى الحوارُ والنضالُ من أجل الدفاع عن القيم العلمانيّة في مواجهة أيّ محاولةٍ للانقلاب عليها سمةً من سمات الأنظمة العلمانيّة.

إنّ مجرّد طرح التضادّ بين العلمنة والدين لا يمكن إلا أن يكون رفض المؤسّسات الدينيّة القبولَ بالآخر المختلف، عقيدةً وفكرًا. فلم نشهدْ حتى الآن، نظريًا وفي الممارسة، قبولاً كاملا للأديان فيما بينها، إذ لكلٍّ منها رؤيةٌ متميّزةٌ إلى «الحياة الصالحة» تحاول فرضَها. وفي أحسن الأحوال تقبل إحداها بالأخرى كفئة غير كاملة الحقوق ـ وهو قبولٌ قسريٌّ يحمل، في جوهره، المعاداةَ أو التكفيرَ أو الرفضَ، ويختزن كَمًا كبيرًا من الرغبة في الغلبة.

❖ ❖ ❖

أخيرًا، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ العلمنة ساهمتْ في تطوير الفكر الدينيّ في أوروبا المسيحيّة، وجزئيًا في تجربة الإسلاميين في تركيا، حيث يُرصَد أداءٌ أكثرُ مدنيّةً وعصريّةً حتى نكاد ننسى معه جملةَ الارتكابات الكبيرة لمحاكم التفتيش وسياسات التحريم والتكفير. كما تعيش المجموعاتُ الدينيّة في ظلّ هذه الأنظمة حريّةً كاملةً في ممارسة شعائرها الإيمانيّة، ولا يُنْتَقَصُ من إيمانها شيء، ولا تعدو معاداةُ العلمانيّة إلا أن تكون سلاحًا لاستعادة مجدٍ مفقود.

جنوب لبنان

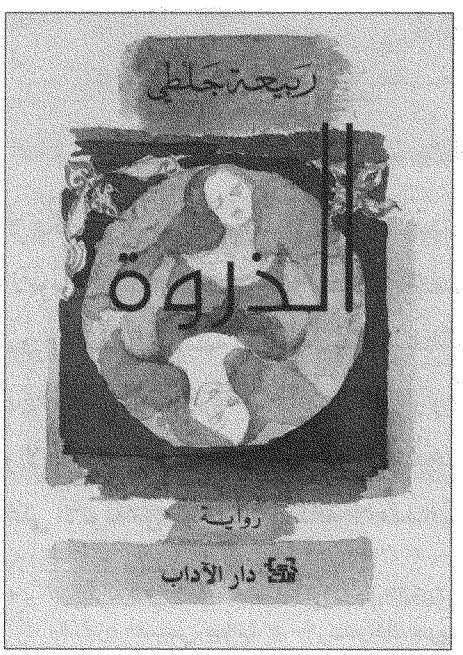

تتناول رواية «الذروة» حيوات خمس نساء يتقاسمن ويتخاصمن عالمًا من الأحلام والأوهام والذكور. رواية حبّ وبوح، تُحيل بمرارة كبيرة على الواقع العربي الذي تتحكّم في أنفاسه سلطة مريضة وهرمة؛ رواية تبحث عن السلام المفقود في النفوس، وعن المناطق المتوحّشة في الروح حيث الشرّ المطلق يرفض الأخوّة.

ربيعة جلطي شاعرة وروائيّة جزائريّة. حائزة دكتوراه دولة في الأدب المغاربيّ المعاصر. تشغل منصب أستاذة محاضرة بالجامعة المركزيّة بالجزائر. صدرتْ لها ستّة دواوين شعريّة وكتاب نثريّ. تُرجمتْ أعمالها إلى لغات عدّة.